

التناص القرآني عند شعراء الموصل في القرن الرابع الهجري

د. غانم سعيد حسن*

ملخص البحث:

بعد الاستقراء الذي اجريناه على المنتج الشعري لشعراء الموصل لافي القرن الرابع الهجري تبين انهم لم يكونوا ملتزمين بتعاليم الاسلام من الوجهة السلوكية. الا انني وجدت قضية لم يسلط احد الضوء عليها هي تناص شعراء الموصل في افادتهم من كتاب الله العزيز فآثرت ان اتحدث عن هذه الناحية ولو ان هذا التأثير كان ثقافياً لا واقعياً. تبين لي ان التناص من كتاب الله في شعرهم كان ببراعة فنية عالية ولم يكن لصيقاً او زخرفاً وانما جاء ضمن التشكيل الفني للقصيدة خدم ناحيتين في شعرهم الصورة الفنية والموضوع الشعري. لقد اكثر شعراء الموصل مما يسمى بالتناص المعكوس ذلك ان الاية القرآنية في موضوع والشاعر يفيد منها في موضوع مغاير. تبين ايضاً ان السري الرفاء والخباز البلدي قد اكثرا التناص من كتاب الله ثم يأتي بعدهما الاخوان الخالديان واقل شعراء الموصل حظاً من التناص هو ابو الفرج الببغاء.

The Quoranic Intertextuality With the poets of Mosul in the 4th century A.H

Abstract:

It has been discovered that the poets of Mosul during the 4th Century were not engaged in the instructions of Islam from the point of view of behaviour.

But I have found an aspect which has not been tackled namely the intertextuality in the poetry of those poets. In fact, they made use of the Holy Quran in spite of the fact that influence has been more cultural than realistic. This intertextuality has been done in a highly artistic one. This element is not

* استاذ مساعد/ قسم اللغة العربية/ كلية التربية.

more an ornament but it has two functions, the poetic image and the poetic themes.

The poets of Mosul used inversive intertextuality. This is achieved by the fact that the Quoranic verse talks about one subject and the poet uses it in another subject.

It has been discovered that two poets used intertextuality in a very exaggerated one namely AL-Sarray AL-Raffa and AL-Khabbaz AL-Baladi, then followed by Al-Khaidiyan Brothers whereas Abu AL-Farraj AL-Babagha used it less than the others.

تمهيد

بعد المسح الذي أجريناه على المنتج الشعري لشعراء الموصل تبين أن هؤلاء الشعراء خلال القرن الرابع لم يكونوا ملتزمين بالمعطيات الإسلامية ولم يلتزموا الإسلام من الوجهة السلوكية ولم يكتبوا شعراً بقصد خدمة الدين الحنيف ويتضح من سيرتهم وشعرهم أنهم كانوا أبيقوريين* يبحثون عن اللذة والمتعة أين ما وجدوها في الأديرة وحانات شرب الخمرة وعلى هذا فقد وصف الدكتور سامي الدهان الأخوين الخالديين بأنهما "قد اتخذتا من حياتهما حرية في العيش ليس لها حدود ولا سدود...كانا يشربان في النهار أو في الليل فيما يبدو ويطربان بالموسيقى والغناء والرقص"^(١) ولكل إنسان اختياره وقال في موضع آخر هناك من يفضل مقارنة الأبطال بالسيوف وهناك من يفضل مقارنة الكؤوس والحياة الوان وإن هذا اللون الذي كان يصطنعه أبو عثمان الخالدي لا يتصل أكثر ما يتصل إلا بالحرية والإنفلات من القيود الاجتماعية يجري في حلبة اللذائذ^(٢)

إلا أنني وجدت قضية لم يسلط أحد الضوء عليها هي التناص القرآني في شعرهم فأثرت أن أتحدث عن هذه الناحية ولو أنهم تأثروا بكتاب الله العزيز من الناحية الثقافية ذلك أنهم يعيشون في مجتمع إسلامي يتأثرون بمجريات أحداثه ومناسباته الدينية.

لقد اقتبسوا آيات ومفردات جاءت موظفة في تجربتهم الشعرية ولم تكن لصيقة أو ملحقة وإنما جاء التوظيف ببراعة فنية عالية خدمت ناحيتين أساسيتين في شعرهم هما الصورة والموضوع الشعري لذا سيكون مدار حديثنا في هذين المحورين عند التحليل.

لابد في تمهيدنا هذا أن نتكلم بإيجاز عن مفهوم مصطلح التناص عند الغربيين وعند العرب لأن فيه إشكالاً في الرؤيا عند كل باحث منهم.

التناص مصطلح نقدي حديث دخل الأدب العربي عن طريق الترجمة للكلمة الفرنسية (Intertext) وتعني التبادل النصي ولعل أول من استخدم مصطلح التناص في العربية المغربي رشيد بنحدو^(٣) وقد استخدمت مصطلحات عديدة بديلة عن هذا المصطلح كالتعلق النصي أو التداخل النصي أو عبر النصية وغيرها^(٤).

وترى جوليا كريستيفا أن التناص هو ترحال النصوص وتقاطعها في فضاء نص معين جديد فتظهر ملفوظات عديدة مقطوعة من نصوص أخرى لتخلق نصاً جديداً^(٥) ومن هنا فإن "توصل الدارس إلى دراسة العلاقات بين المضامين المختلفة في النص الواحد يمكنه من دراسة اتصال هذا بالذات أو تحدهه بأنظمة علامات أخرى قد تكون نصوصاً أخرى بدورها أو غير ذلك"^(٦)

إن مصادر التناص متباينة فمنها ما يأتي عفواً في الذاكرة ومنها ما يتشكل عبر المعاشية الدائمة للنصوص فالتناص يقوم على تشريح النص وتفكيكه كاملاً ثم السعي من أجل تركيبه من جديد "فالشاعر والكاتب وهو ينتج نصه إما أن يعيد نتاجاً سابقاً له بصورة معينة أو يعيد إنتاج ما أنتجه غيره ومعنى هذا أن التناص إما أن يكون داخلياً أو خارجياً وفي كلتا الحالتين.... فالشاعر لا يمتص آثار سابقة أو يعيد كتابتها بل يحاورها ويموضع نصه أو نصوصه مكانها معها في خارطة الثقافة"^(٧) ولعل واحدة من أهم تقنيات التناص ما يعرف بالدوال المولدة وتعني أن كل نص من النصوص في اية ثقافة يمثل فضلاً عن نظامه التركيبي وادائه طاقة توليدية لما لانهاية له من النصوص التي يمكن أن تتوالد مع بعضها البعض سواء أكانت نقدية أم تفسيرية أم تأويلية أم إبداعية^(٨)

إن المبدع أياً كان عندما ينتج نصاً فإنه يضع في لاوعيه تراكم الماضي وهي لافتة تطبيق لغرض إشباع فكر القارئ وغرسه في نصوص سابقة من أجل تذويب نص الآخر ومحوه وإعادة خلقه بحيث لا يعود أكثر من ذكرى بعيدة^(٩)

ولو أن هذا الرأي ينسجم على التناص من كلام البشر وأما ما نحن فيه من التناص القرآني فإنه لا يمكن أن يعود مجرد ذكرى بعيدة وإنما سيؤثر ويؤثر في المبدعين إلى ما شاء الله ونحن في هذا المقام لسنا في صدد دراسة المصطلح النقدي والخوض بما فيه من إشكاليات بين الباحثين ومن أراد الإستزادة فعليه أن يراجع^(١٠) تتضمن هذه الدراسة مبحثين الأول التناص المباشر والثاني التناص غير المباشر

المبحث الأول التناص المباشر

لعل أكثر الشعراء تناصاً بين شعراء الموصل هما السري الرفاء والخباز البلدي وعلى هذا أثرنا أن نبدأ بهما.

السري الرفاء (ت ٣٦٢) أكبر شاعر أنتجه الموصل عبر عصورها الأدبية من الناحية الفنية والكم الشعري الذي خلفه في ديوانه وستكون خطتنا وطريقة عرضنا للبحث في تناول من أورد نصاً قرانياً يكاد يكون كاملاً إلا من تحريف ضئيل ليوافق الشاعر بذلك أوزانه وقوافيه وبعضهم اقتبس وتأثر بالمفردات والألفاظ القرآنية أو بالمضامين الخفية وهذا من أبداع ما يتصور.

لقد أكثر السري من وصف البيئة بما فيها من حيوان ونبات وجماد من ذلك قوله في البراغيث:

ضاع دمٌ بينكم مشروب وضعف الطالب والمطلوب^(١١)

فقد استمد الشطر الثاني من قوله تعالى (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)^(١٢)

لقد وافق الشاعر بين ضياع دمه عندما غزته البراغيث في الليل وسلبته راحته وضياع الحق عندما يسلبهم الذباب شيئاً وهم لا يستطيعون أن يستنقذوه منه أو يسلبهم صحتهم بما يجلب لهم من الأمراض والأوبئة. وقوله:

قائلٌ إن نذرُ الشيب بدت في عذاريه وما تغني النذر^(١٣)

تأثر في قوله تعالى حكمة بالغة (فما تغني النذر)^(١٤)

الصورة في عدم الجدوى إذا مضى العمر ونذر الشيب بدت لا علاج وما بينه الله سبحانه وتعالى إن فرط العبد في حق ربه فحكمه الله قضت منذ الأزل بالحساب والعقاب لمن ابتعد عن منهج الله وكل شيء بقضاء وقدر يجري بعلم الله لذا فما تغني النذر. وقوله:

وكم لذة لا من فيها ولا أذى هديت لها خدن الضلالة فاهتدى^(١٥)

فهو مستمد من قوله تعالى (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا مناً ولا أذى)^(١٦) إن الموضوع الشعري متباعد بين نص الشاعر والآية الكريمة وهو ما يسمى بالتناص العكسي أو المقلوب ذلك إن الشاعر يهجو ابن العصب الملحي ويتهمة أنه يجمع في داره أهل الريب ويدعوهم إلى شرب الخمرة من غير من ولا أذى وكان خدن الضلالة أي صديقاً حميماً في دعوته للذة والعصيان أما الآية الكريمة فنزلت فيمن ينفق أمواله في تجهيز جيش المسلمين للحرب من غير إلحاقه بمن ولا أذى من كلام أو تصرف من شأنه اضعاء الأجر وقيل نزلت حصراً في عثمان بن عفان (رض) لما جهّز جيش العسرة في سبيل الله^(١٧) أما من حيث الصورة فهناك تلاؤم هي أن المنفق لا يتبع إنفاقه مناً ولا أذى وكذلك شرب الخمرة أو ما يسمونه هم بالقصف فهم مستأنسون ببعضهم لا يتبعون مجالسهم مناً ولا أذى من أجل حصول الطوعية والانسجام بين الشاربين. وقوله أيضاً:

وهل يستوي عذب المياه وملحها؟ وهل يتكافأ الخصب في الأرض والجذب؟^(١٨)

فهو مستمد من قوله تعالى (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج)^(١٩) موضوع الشاعر يعزي الأمير عدة الدولة بوالدته ويمدحه أنه عذب المياه وأرضه خصبة يختلف عن غيره من امراء عصره أما مقصود الآية فإن الله بحكمته خلق الكون على الضدية ماء عذب سائغ شرابه وماء ملح أجاج ومن كل يستخرج الإنسان لحماً طرياً لإدامة حياته.

وقوله يدعو أحد أصدقائه ويعرض له ما عنده من مغريات:

هل لك يا ابن غالية في قهوة وشادية
وفي كروم جمّة قطفهنّ دانية^(٢٠)

مستمد من قوله تعالى (قطوفها دانية)^(٢١) يصف الله الجنة أنها ميسورة وثمرها سهل المنال من غير مشقة وضنى يختلف عن ثمر الدنيا لا ينال إلا بالتعب والسري الرفاء يغري صديقه بالقدوم عنده وقد اعدّ له ما لذ وطاب من أجواء الأنس واللذة كي يستجيب لمراده ويحضر مجلسه فهناك توافق واضح في المقاصد وقد أتى بالآية مؤكداً إغراءه لصديقه كما رغب الله عباده في جنته إذا أطاعوه والتزموا منهجه. ومن قوله:

هذه جنة الخلود ومالي من حميم ولا شفيع يطاع^(٢٢)

إنه يمدح في القصيدة أميراً قد وصل جنته وهو بحاجة إلى رफده وأبان عن ضياعه إن لم ينتشله الأمير ويخلصه مما هو فيه أي إن الأمير المنقذ مما هو فيه وهذا من أساليب إثارة الممدوح بتناص مع قوله تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع)^(٢٣) وقال في قصيدة أخرى يهني ناصر الدولة بالعيد الأضحى ويذكر شغب الأتراك وأن الله سبحانه وتعالى يدافع عنه في محنته هذه:

دفاع الله عنك اعمّ فضلاً واحلى في القلوب وفي الصدور
أناصر دولة الإسلام صبراً فإن الصبر من عزم الأمور^(٢٤)

استمد الشطر الثاني من البيت الثاني من قوله تعالى في وعظ لقمان لابنه (واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)^(٢٥)

لعل الخباز البلدي أبا بكر محمد بكر محمد بن أحمد (ت ٣٨٠) هو الآخر أكثر التناص من كتاب الله ومما قاله الثعالبي فيه (ومن عجيب شأنه أنه كان أمياً وشعره كله ملحّ وتحف وغرر وظرف ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن أو مثل سائر)^(٢٦)

وكان الخباز البلدي يحفظ القرآن الكريم ويتمثل به في شعره ولعل خير مصدر كان يستقي منه لدعم شاعريته هو القرآن الكريم لأنه أُمّي^(٢٧) لا يحفظ غيره لذا فقد اقتبس من آيات الله في موضوعات شعرية عديدة منها قوله وقد سافر محبوبه في البحر

سار الحبيب وخلف القلب بيدي العزاء ويضمّر الكربا
قد قلت إذ سار السفينُ بهم والشوق ينهب مهجتي نهبا
لو أن لي عزّاً أصولُ به لأخذت كلّ سفينة غصبا^(٢٨)

يتمنى الشاعر أن يمتلك السلطة ليمنع سفن الأحبة من السفر والترحال ومقصود الآية وإن كان يختلف عن مراد الشاعر إلا أنه وظف معنى الآية بشكل فني دقيق لأن الملك كان يأخذ كل سفينة غصباً^(٢٩) لتكون له آلة في الحرب أما الشاعر فأفاد من هذا المقصود لإقامة غزله وإدامة حبه بمنع الحبيب من المغادرة لو كان يمتلك عزّاً وسلطاناً وهذا ما يسمونه بالتناص العكسي أو المقلوب.

ومن عجيب أمر الخباز البلدي أنه يتناص مع كتاب الله العزيز وهو غالباً ما يتغزل ويذكر فراق الأحبة مثل قوله:

كأنّ يميني حين حاولت بسطها لتوديع إلفي والهوى يذرف الدمعا

يمين ابن عمران وقد حاول العصا وقد جعلت تلك العصا حيةً تسعى
وقائلة هل تملك الصبرَ بعدهم؟ فقلت لها لا والذي أخرج المرعى (٣٠)
إن الصورة التي ركبها عند توديع الأربة وقد بسط يمينه كيمين موسى بن عمران عندما كان
خائفاً من التقاط العصا بعد أن أصبحت حية تسعى (٣١)
وفي البيت الثالث أكد عدم صبره على فراق الأربة متكئاً على القسم بالله في قوله تعالى (والذي
أخرج المرعى) (٣٢)
وقوله: ألا إن إخواني الذين عهدتهم أفاعي رمال لا تقتصر في لسعي
ظننت بهم خيراً فلما بلوتهم نزلت بواد منهم غير ذي زرع (٣٣)
الموضوع الشعري خيانة الأصدقاء بعد أن ظنَّ بهم خيراً حاله حال إبراهيم عليه السلام عندما
ترك زوجته وولده بمكة في وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم (٣٤) فصوره الضياع ظاهرة
في الاثنين معاً إلا أن الشاعر لم يجد دعماً وسنداً غير أن إبراهيم (ع) يرى الدعم والإسناد
والعناية الإلهية تصاحبه وتصاحب أسرته وهو في الوقت نفسه ينفذ أمراً أقره الله بحكمته لا بد
من الخضوع والطاعة والامتثال له (٣٥).
وفي قوله: أترى الجيرة الذين تداعوا بكرة للرحيل قبل الزوال
علموا أنني مقيمٌ وقلبي راحل فيهمُ أمام الجمال
مثل صاع العزيز في ارحل القو م ولا يعلمون ما في الرحال (٣٦)
لقد شبَّه قلبه عند رحيل الأربة أنه راحل أمام الجمال بصاع العزيز يوسف (عليه السلام) لمَّا
كان في رحل أخيه وهم لا يعلمون ما في الرحال (٣٧) فهناك توافق على مستوى الصورة
والموضوع بين مراد الله وقصد الشاعر عند التناص لذا كان التوظيف موفقاً في تركيب الصورة
وإن كان الشاعر يتغزل واصفاً قلبه من شدة شوقه قد رحل مع من أحب إلا أن العزيز يوسف
(ع) أراد استبقاء أخيه الشقيق فأخفى عن إخوته ما في الرحال.

المبحث الثاني : التناص غير المباشر

سنعرض في هذا المبحث لمن تناص مع كتاب الله بطريقة غير مباشرة استمد الشاعر فيها
الالفاظ والمفردات القرآنية وبعض المضامين الخفية ليعبر بها عن مراده الشعري ولقد برع
شعراء الموصل في هذا المقام وبم اننا ذكرنا السري الرفاء والخباز البلدي فسنبداً هنا بالاخوين
الخالديين ابي بكر محمد (ت ٣٨٠) وابي عثمان سعيد (ت ٣٩٠) ابني هاشم لقد كان شعراء

الموصل يشربون الخمرة في الاديرة وما اكثرها في تلك الديار وعلى هذا أبان الخالدي الاكبر ابو بكر محمد بقوله:

يسقيكها من بني الكفار بدرُ دجى الحاظه للمعاصي اوكدُ السبب (٣٨)
وهو يشرب يدرك ان الذي يسقيه من بني الكفار وان نظرتَه والحاظه تنثير في النفس المعاصي
ولاريب ان المفردتين (الكفار والمعاصي) من مفردات القرآن ومن المتداول المعروف وقد
وظفهما الشاعر لما يريد ويبغي.

ومن توظيفه لمفردات كتاب الله ذكره العدة والطلاق ثلاثاً وقد ولدت المفردتان معاني جمّة افاد
منها التعبير عن مراده ان الاحبة الذين يفديهم بروحه قد تركوا أثراً في القلب مما افسده وعاث
فيه حيث ان الشاعر قد فارق السرور بعد المغادرة وطلّقه ثلاثاً لارجعة فيها بقوله:

روحي الفداء لظاعنين رحيلهم انكى وافسد في القلوب وعاثا
فليقض عدته السرور فأُنني طلقت بعدهم السرور ثلاثاً (٣٩)
وقد وصف في موضع آخر الرعد والبرق والمطر وهو ساهر لم يغمض له جفن اثار هذا
المشهد في نفسه رغبة ورهبة لهذا الجو المفعم بالحركة والاضطراب في قوله:
فيه للآزهر والرؤ ضة وعدّ ووعيد (٤٠)

لقد افاد من كلمتي (وعد ووعيد) اللتين في المحسن الذي يستحق الجنة والمسيء الذي آل مصيره
الى النار ولاسيما ان هاتين المفردتين مبدأ من مباديء المعتزلة الخمسة التي كانت تدور في
عصره وكثر الكلام حولهما ولا يخفى ان مباديء المعتزلة مستمدة من كلام الله لذا اصطالحوا على
العلم الذي اشتغلوا به بعلم الكلام.

واحيانا يتناص ابو بكر الخالدي عند ذكره لاعلام واردة في القرآن الكريم يرد بها على
الجهلة واهل السفاهة عندما ينتقدون شعره ولا يرضون عنه لقصور علمهم بالشعر فيأتي بأسم
(هاروت) الذي يعلم الناس السحر ببابل في قوله:

عدمك يامن رام شعري سفاهة متى كنت من اقران (هاروت) في السحر (٤١)
لا يخفى وجه الربط بين السحر والشعر حيث انهما يمارسان التأثير في المتلقي وعلى هذا قال
النبي (ص) (ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا) (٤٢) فالبيان وحسن التعبير يؤثران تأثير
السحر ويفعلان فعله.

وفي موقف آخر يصف جودة الخمرة وتقادمها كأنما عاصرها آدم أبو البشر وهذا المقصد معروف من المبالغة المعهودة لدى الشعراء عند وصفهم للخمرة المعتقة قال الشاعر:
مدامة كأن من تقادمها عاصرها آدم أبو البشر^(٤٣)

ولا يقل عنه مبالغة أبو الفرج الببغاء(ت٣٩٨) عندما يصف عتق الخمرة وهرمها وانها عريقة الانساب وهي موجودة والخلق في العدم منذ ادم وحواء في قوله:

وعريقة الانساب والشيم موجودة والخلق في العدم
قدّمت فلا تعزى الى حدث الا اذا عزيت الى الهرم
هي ادم الكرم المولد في الـ دنيا وحوّا الخمر في القدم^(٤٤)

قال وقد أمر الامير بجمع المتكلمين ليتناظروا بحضرته في يوم دجن:

هو يومٌ كما ترا ه مليح الشمائل
هاج نوح الحمام فيه غناء البلبائل
ولركب السحاب في الـ جوحق كباطل^(٤٥)

لقد افاد من مفردتي (حق وباطل) في تشكيل اختلاط اليوم الشديد المطربين الضار والنافع من الوجهة المادية الا انه انتقل ليلائم حديث المتكلمين من الوجهة المعنوية وتصوراتهم عن الحق والباطل في سلوك الناس وتصرفاتهم آنذا واصفاً الجدل القائم بينهم في القصيدة نفسها ومن له القدرة على ان يحسم ماهو حق وماهو باطل لذا فالشاعر يدعوهم الى ترك النقاش والمكابرة ولايبد من الركون الى الطبيعة واللذة^(٤٦).

ولعل اخاه ابا عثمان سعيد لا يقل عنه شاعرية وان كان اصغر منه سناً بعشر سنين ومما قاله عنهما معاصرهما ابو منصور الثعالبي(ان هذان لساحران يغربان بما يجلبان ويبدعان مما يصنعان وكان مايجمعهما من اخوة الادب مثل ماينظمهما من اخوة النسب فهما في الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة ويشتركان في قرص الشعر وينفردان ولايكاد في الحضر والسفر يفترقان^(٤٧) ومن قول ابي عثمان سعيد الخالدي:

اعاذل ان كساء التقى كسانيه حبي لاهل الكساء

وهذا التناص في اقتناص المعاني والمفردات القرآنية من ارواح وادق مايمكن تصويره لما فيه من خفاء من الافادة من كلام الله فهو يخاطب العاذل واللائم بأنه قد كسي بثوب التقى وهو ثوب معنوي مستمد من قوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير)^(٤٨).

وقال للوزير المهلبى وذكر (معز الدولة):

ان غبت اودعك الاله حياطة واذا قدمت اباحك الترحيبا

ويكون من مقة كتابك عنده كقميص "يوسف" اذ اتى يعقوبا (٤٩)

أبان بتشكيل الصورة أثر الكتاب الذي ارسله الوزير المهلبى المعبر عن الود والمحبة والاخلاص بينهما والتلف في التلاقي عن طريق الكتابة بينهما اشبه بقميص يوسف (ع) عندما شمه وضمه يعقوب (ع) اليه مصوراً للهفة في كل والشوق بعد انقطاع وبعاد بينهما وهذا مذكرناه من الافادة من ذكر الاعلام الواردة في القرآن الكريم.

وكتب ايضاً قصيدة يصف فيها عبده وخادمه على اثر سؤال ابن سكرة الهاشمي

الشاعر البغدادي عنه بقوله:

ماهو عبد لكنه ولد خولنيه المهمين الصمد (٥٠)

لايخفى ان مفردتي (المهيمين والصمد) من كتاب الله العزيز وظفهما الخالدي في وصف عبده الذي احسن خدمته وان الله منحه هذا الفضل العظيم.

وقال يصف شاباً جميل الخلقة بقوله:

ريقته خمرٌ وانفاسه مسكٌ وذاك الشعر كافور

اخرجه رضوان من داره مخافة ان تقتن الحور (٥١)

رضوان من ملائكة الجنة كأنه اخرج ذلك الشاب من الجنة مخافة ان تقتن الحور وهو يريد بذلك اخراج الشاب في الدنيا لا في الآخرة مخافة ان تقتن به النساء لما حوى من آيات الجمال ذلك ان الآخرة لا فتنة فيها لانها دار حساب وثواب لا دار عمل وتكليف.

لم نجد عند الأخوين الخالديين سوى الالفاظ القرآنية وبعض المعاني القرآنية الخفية في شعرهم ولم يكونا كالسري الرفاء والخباز البلدي اللذين استمدا من كتاب الله آيات وجمالاً عديدة ومفردات ومقاصد ولا بد لنا من عودة الى السري الرفاء في افادته من مفردات كتاب الله لاسيما قوله:

وكشّف البيت ذو الاطناب صفحته كأنه فوق صرح من قوارير (٥٢)

فصرح وقوارير من الفاظ القرآن الكريم الواردة في قصة سليمان (ع) مع بلقيس ملكة سبأ وافاد في موضع آخر من مفردات كتاب الله وهو يمدح آبا العطف جبر بن عبدالله ابن حمدان ويذكر وقعته مع الديلمي في قوله:

رفق الزمان بنا وكان عنيفاً وغدا لنا بعد القراع حليفاً

ودنت ظلال المكرمات وذللت اثمارها للطالبين قطوفاً (٥٣)

صوّر رفد الامير الحمداني وماحاطه به من الرعاية والعناية وكأنه في جنة كلّ شيء فيها ميسور
دون مشقة او ضنى وعلى هذا فقد افاد من كلمتي (ذللت وقطوفها) ليشكل صورة مكرمات
المدوح الثرة. وقال السري الرفاء ايضاً وهو يتغزل:

هاج لقلبي الشوق وجد طريقه وشفه ذكر حبيب ارقه

تأنق الخالق في قدرته فابلق القدرة لما خلقه

فهو اجل ان يقال انه من نطفه او مضغة او علقه (٥٤)

فهو يبالي في تعظيم محبوبه لما فيه من آيات الجمال والرفعة وكأنه لا يريد ان يقرّ انه قد خلق
فعلاً من نطفة او مضغة او علقه على الرغم من انه يعظم الخالق ويعظم قدرته وكأن المحبوب
حسب خياله وشعوره سوى البشر لما فيه من الدهشة والتأثير وهذه مبالغة معهودة لدى الشعراء
بين منكر لها ومستلطف ويعلق محقق الديوان على الابيات قبل ايرادها بقوله: (قال عفا الله عنه).
ولعل هذا النمط من التوظيف ما يسمى بالتناص المعكوس او المقلوب حيث يأخذ المتناص
اتجاهاً آخر ليحقق مراده ويوافق هوى نفسه وله الفاظ قرآنية اخرى افاد منها في تناصه وماذكرنا
فيه الكفاية في ايضاح مما نحن فيه.

لعل اقل شعراء الموصل حظاً من النناص هو البيغاء ابو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي
من اهل نصيبين ولقد اثنى عليه النعالي كثيراً وبالع في وصف شعره على عادته في تقديم شعراء
عصره مثل قوله فيه (نجم الآفاق وشمّامة الشام والعراق وظرف الظرف ونبوع اللطف واحد
افراد الدهر في النظم والنثر له كلام مدام بل نظام من الياقوت بل حبّ الغمام) (٥٥)
استمد بعض المعاني والالفاظ من كتاب الله في معرض مدحه لسيف الدولة الحمداني اكثر فيها
من ذكر النعم مثل قوله:

ان يقتضي لي من انعامه خلعاً تنوب عن منطقي في شكر نعمته (٥٦)

وبيعث البيغاء برسالة الى ابي محمد بن جعفر بن محمد بن ورقاء ثم يتعجبها بقصيدة يذكر فيها
الحمد المفردة الكثيرة الورود في كتاب الله بعظم فيها شأن القوة والعلم ويسخط من المادية والمال
في قوله:

سخط المال من اكفكم ما حمدته السيوف والاقلام (٥٧)

ولعل ظلال المقاصد الدينية ومانشرب الى النفوس واختزنته في معايشتها لكتاب الله العظيم يبدو شاخصاً للعيان في قوله من المواعظ والحكم:

وانا الذي علّمت من طلب الغنى كيف الطريق الى الغنى برجائه
فظللت مخصوصاً بحمد عفاته وغدوت ممدوحاً بشكر عطائه
وافدت قدماً معجزات فضائلي من نور فطنته ونار ذكائه
فاذا نطقْتُ ونطقتُ من الفاظه واذا وهبتُ وهبتُ من نعمائه^(٥٨)

ولعل المفردات التي اوردها في الابيات الاتية وتكراره لمفردة الروح ثلاث مرات والطمع مرتين فضلاً عن ذكره للصبر والجزع كلّ ذلك مجتمعاً وهو يتغزل يوحى بالتأثر بمفردات القرآن ومضامينه في قوله:

ياسادتي، هذه نفسي تودّكم إذ كان لا الصبر يسليها ولا الجزعُ
قد كنت اطمع في روح الحياة لها فالأن إذ بنتم لم يبق لي طمعُ
لاعدّب الله روعي بالبقاء فما أظنني بعدكم بالعيش انتفع^(٥٩)

بيّنا في عرضنا للبحث نصيب كلّ شاعر موصل في القرن الرابع الهجري ومدى تناصّه من كتاب الله العزيز سواء أكان التناص في آيات ام جمل ام مفردات ام مضامين، وكان الحديث منصّباً على كل شاعر حسب عطائه الشعري فاعطينا كلّ ذي حقّ حقه بما ينسجم ويلائم عنوان البحث والله الموفق للصواب.

الخاتمة

نستخلص من الاستقراء الذي اجريناه على المنتج الشعري لشعراء الموصل في القرن الرابع الهجري انهم لم يكونوا ملتزمين بالمعطيات الاسلامية ولم يلتزموا تعاليم الاسلام الحنيف الا انني وجدت قضية لم يسلط احدُ الضوء عليها هي تناص شعراء الموصل وافادتهم وتأثرهم الظاهر بكتاب الله العظيم فأثرت ان أتحدث عن هذه الناحية ولو ان هذا التأثير كان ثقافياً واقعياً تبين لي ان التناص من كتاب الله في شعرهم كان ببراعة فنية عالية ولم يكن لصيقاً او زخرفاً وانما جاء ضمن التشكيل الفني للقصيدة والبيت الشعري خدم ناحيتين اساسيتين في شعرهم الصورة الفنية والموضوع الشعري على حد سواء. تبين ايضاً انهم اكثر من يسمّى بالتناص العكسي او المقلوب ذلك ان الآية القرآنية تتحدث في موضوع والشاعر يستلهمها في موضوع مغاير يريده هو ليوافق بذلك عواطفه ومشاعره وخياله وهواه وهذا شيء متوقع فأين مقاصد خالق الخلق اللامحدودة من مقاصد المخلوق المحدودة بعقله ولغته وبيئته.

كما تبين حسب النصوص الشعرية ان السري الرفاء والخباز البلدي قد اكثرا التناص من كتاب الله ثم يأتي بعدهما الأخوان الخالديان واقل شعراء الموصل خطأ من التناص هو ابو الفرج البغاء.

المصادر والمراجع المعتمدة في البحث

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- انوار الربيع في انواع البديع ايم معصوم المدني (١٠٥٢-١١٢٠) تحقيق شاكِر هادي شكر مطبعة النعمان، النجف الاشرف، كربلاء العراق ١٣٨٨-١٩٦٨.
- ٣- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي ط منشورات دار مكتبة الحياة بيروت الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية ١٣٠٦.
- ٤- تحليل الخطاب الشعري (ستراتيجية التناص) د. محمد مفتاح المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ١٩٨٥.
- ٥- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ابو منصور الثعالبي، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم، مطبعة المدلي القاهرة ١٣٨٤-١٩٦٥.
- ٦- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت ٦٧١) اعتنى به وصححه هشام سمير البخاري ط ١ دار احياء التراث العربي بيروت، ١٤١٦-١٩٩٥.
- ٧- ديوان الخالدين جمع وتحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، ١٣٨٨-١٩٦٩.
- ٨- ديوان السري الرفاء، تحقيق ودراسة د. حبيب حسين الحسني، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١.
- ٩- شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص، عبد الرحيم العباسي، المطبعة البهية مصر ١٣١٦.
- ١٠- شعر الخباز البلدي، جمع وتحقيق صبيح رديف، ط ١ مطبعة الجامعة بغداد ١٣٩٣-١٩٧٣.
- ١١- علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة مزيد الزاهي دار توبوقال ط ١ دار البيضاء ١٩٩١.
- ١٢- قدمات ومعاصرون، د. سامي الدهان، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦١.
- ١٣- مجمع الامثال، ابو الفضل احمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨) تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.
- ١٤- المحمدون من الشعراء واشعارهم القفطي (٦٤٦-١٢٤٨) الهند الدكن حيدر آباد مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٨٥-١٩٦٦.
- ١٥- المعجم الفهرس لالفاظ الحديث النبوي، ليف من المستشرقين، مكتبة بريل ليدن، ١٩٣٦.
- ١٦- ينيمة الدهر، الثعالبي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط ٢ مطبعة السعادة القاهرة ١٣٧٥-١٩٥٦.

الدوريات

- ١ - اشكالية المصطلح في النقد العربي المعاصر، فخري صالح مجلة الاقلام العدد الثاني لسنة ١٩٩٨.
- ٢ - التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث، د علوي الهاشمي مجلة مؤتة العدد ٣ لسنة ١٩٩٠.
- ٣ - التناص الآلية النقدية، داؤد سليمان الشعري، الموقف الثقافي دار الشؤون الثقافية، بغداد/ العدد ٢٦ لسنة ٢٠٠٠.
- ٤ - التناص سبيلاً الى دراسة النص الشعري، شربل داغر مجلة فصول العدد الاول المجلد ١٦ لسنة ١٩٩٧.
- ٥ - التناص في نماذج من الشعر المغربي المعاصر، تركي المغييض مجلة ابحاث اليرموك المجلد ٢٠ العدد الاول ٢٠٠٢.

الهوامش

- *مذهب مؤداه ان اللذة هي وحدها الخير الأسمى والألم هو وحده الشر الأقصى وقد تستعمل اللفظة في اللغة الجارية للتهكم انظر المعجم الفلسفي ٢.
- (١) قدماء ومعاصرون، د. سامي الدهان، ٣٦.
- (٢) المرجع نفسه، ٣٩.
- (٣) ينظر التناص في نماذج من الشعر المغربي المعاصر، تركي المغييض مجلة أبحاث اليرموك المجلد ٢٠ العدد الأول، ١١٦.
- (٤) ينظر إشكالية المصطلح في النقد العربي المعاصر، فخري صالح، الاقلام العدد الثاني، ٩١.
- (٥) علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال ط ١ الدار البيضاء ٢١
- (٦) التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري، شربل واغر، مجلة فصول العدد الأول المجلد ١٦، ١٣٢.
- (٧) تحليل الخطاب الشعري (ستراتيجية التناص) د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب ١٢٣.
- (٨) ينظر التعالق النصي في الشعر السعودي الحديث د. علوي الهاشمي مجلة مؤتة، العدد ٣، ١٨.
- (٩) التناص الآلية النقدية، داود سليمان الشعري، الموقف الثقافي، دار الشؤون الثقافية، بغداد العدد ٢٦، ٥٩.
- (١٠) التناص في شعر العصر الأموي، بدران عبد الحسين محمود البياتي اطروحة دكتوراه جامعة الموصل إشراف د. عمر محمد الطالب ١٤١٧ - ١٩٩٦، ١٤ وما بعدها.
- والتناص في شعر الحرب محمد عبد الموجود حسن البدراني رسالة ماجستير جامعة الموصل إشراف د. عبد الستار عبد الله صالح ١٤١٦ - ٢٠٠٥.
- (١١) ديوان السري الرفاء، تحقيق ودراسة د. حبيب حسين الحسني ١/ ٤٤٥.

- (١٢) الحج ٧٣.
- (١٣) ديوان السري الرفاء ٢/٢٣٥.
- (١٤) القمر ٥.
- (١٥) ديوان السري الرفاء ٢/٨٦.
- (١٦) البقرة ٢٦٢.
- (١٧) الجامع لأحكام القرآن القرطبي ٣/٣٠٦.
- (١٨) ديوان السري الرفاء ١/٣٩٠.
- (١٩) فاطر ١٢.
- (٢٠) ديوان السري الرفاء ٢/٧٧٥.
- (٢١) الحاكمة ٢٣.
- (٢٢) ديوان السري الرفاء ٢/٣٩٠.
- (٢٣) غافر، ١٨.
- (٢٤) ديوان السري الرفاء ٢/٢٨٦.
- (٢٥) لقمان، ١٧.
- (٢٦) يتيمه الدهر، الثعالبى ٢/٢٠٩، وانظر المحمدون من الشعراء وأشعارهم، القفطي، الورقة ٩.
- (٢٧) المصدر نفسه، ٢/٢٠٩، وانظر المحمدون من الشعراء وأشعارهم، الورقة ٩.
- (٢٨) أنوار الربيع في أنواع البديع، ابن معصوم المدني، ٢/٢٤١.
- (٢٩) الكهف ٧٩.
- (٣٠) شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص، عبد الرحيم العباسي ٢/١٦٤.
- (٣١) طه ٢٠.
- (٣٢) الأعلى ٤.
- (٣٣) شعر الخباز البلدي جمع وتحقيق صبيح رديف، ٣٤.
- (٣٤) إبراهيم ٣٧.
- (٣٥) شعر الخباز البلدي، ٣٥.
- (٣٦) يوسف ٧٠-٧١ في معنى الآيتين ولم يأت باللفظ كاملاً.
- (٣٧) ديوان الخالدين جمع وتحقيق دسامي الدهان ٢٥.
- (٣٨) المرجع نفسه، ٣٨.
- (٣٩) المرجع نفسه، ٤٢.
- (٤٠) المرجع نفسه، ٥٦.

(٤١) تاج العروس من جواهر القاموس محمد مرتضى الزبيدي م٣٣٥/٨ فلينظر المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، ٤٩١/١. وينظر، مجمع الامثال الميداني (ت٥١٨) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد م٧/١.

(٤٢) ديوان الخالدين، ٦٠.

(٤٣) يتيمة الدهر ٢٧٨/١.

(٤٤) ديوان الخالدين، ٨٨.

(٤٥) المرجع نفسه، ٨٩.

(٤٦) يتيمة الدهر، ١٨٣/٢.

(٤٧) ديوان الخالدين، ١٠٧.

(٤٨) الاعراف، ٢٦.

(٤٩) ديوان الخالدين، ١٠٩.

(٥٠) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، ٢٢٩.

(٥١) ديوان الخالدين، ١٢٥.

(٥٢) ديوان السري الرفاء، ١٨١/٢.

(٥٣) المصدر نفسه، ٤٢٣/٢.

(٥٤) المصدر نفسه، ٥١٧/٢.

(٥٥) يتيمة الدهر، ٢٥٢/١.

(٥٦) المصدر نفسه، ٢٦٤/١.

(٥٧) المصدر نفسه، ٢٦٥/١.

(٥٨) المصدر نفسه، ٢٦٧/١.

(٥٩) المصدر نفسه، ٢٧٣-٢٧٤.